

## تساؤلات حول التحولات(\*)

د. هاني المرعشلي(\*)

### تهدية

يرتبط اسم محمود أمين العالم في معتزك الحركة الثقافية المعاصرة - في العالم العربي بعامة ومصر بخاصة - بمجموعة من القيم الفكرية التي تمثل نظرية علمية حديثة في فهم الأدب والفكر، كان لها - ولم يزل - تأثير بالغ القوة في كتابات الواقعيين التي رفعت لواء التقدم في غضون التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، من أجل تطوير الأدب العربي، والأرتفاع به إلى مستوى العصر.

بدأ «العالم» حياته الأدبية شاعراً رمزياً مرهف الحس، وأثمرت هذه البداية ديواناً من الشعر<sup>(١)</sup> ودرس العالم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة القاهرة حيث تخرج سنة ١٩٤٦، ونال درجة الماجستير بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من الجامعة نفسها سنة ١٩٥٣ عن بحثه الرائد بعنوان : (المصادفة الموضوعية ودلالاتها في فلسفة الفيزياء).<sup>(٢)</sup>

ومن هنا فهو شخصية متعددة الجوانب تسهم بالكلمة والفعل في جميع مجالات المعرفة، وتدافع عن وجهة نظرها بوضوح وحسم، ذلك أنها تنطلق من تصور أساسي

(\*) حوار على هامش الاحتفال بعيد ميلاد محمود أمين العالم.

(\*\*) مدرس الفلسفة - كلية الآداب - جامعة طنطا.

(١) أغنية الإنسان - كتاب الجمهورية - العدد ١٥، أبريل ١٩٧٠.

(٢) محمود أمين العالم: فلسفة المصادفة، دار المعارف بمصر ١٩٧١.

واحد، وتنطوى على جوهر واحد، وتتجه إلى هدف واحد؛ هو تلبية احتياجات الجماهير الروحية والمادية، وهذا كله فى إطار محكم من إيمانه العظيم بالحرية والوحدة والاشتراكية، وقد دفع «العالم» من حياته وحرسته ثمناً باهظاً لمواقفه الصلبة وشجاعته الحاسمة دفاعاً عن الثقافة الوطنية والديمقراطية.

وقد برزت معالم هذه الشخصية المتعددة الجوانب فيما بعد، عندما ترك «العالم» الجامعة متفرغاً للعمل الصحفى ومتخصصاً فى النقد الأدبى، وارتبط اسمه كما ذكرنا بنظرية علمية جديدة فى فهم الأدب والفكر وتأسيس التيار الواقعى فى الأدب، تؤمن هذه النظرية بالدلالة الاجتماعية والسياسية للأدب، حتى يصبح عاملاً محرراً فى الحياة، مؤثراً فى أحداثها، وتحقيقاً لهذا الهدف على الناقد أن يتناول العمل الأدبى، من حيث الشكل والمضمون، فى ضوء الرؤية المتكاملة للواقع، لا الرؤية الجزئية، مع الوعى الكامل بحركة التاريخ وقوانينه الموضوعية.

وعلى ذلك لا يكتفى هذا المنهج النقدى فى تطبيقاته المتعددة بحدود تفسير النص من الداخل والتوقف عند عناصره الجمالية، وإنما يتجاوز ذلك إلى تقييم النص من الداخل والخارج، بتحليل مصادر التجربة وإبراز معانيها الإيجابية والسلبية، وتوجيه الكتاب لاتخاذ مواقفهم الصحيحة الملهمة.

ومن شأن هذه الأبعاد الجديدة أن تحمل الأدباء مسئولية المشاركة الفعلية فى بناء الحياة، وأداء الدور الذى تفرضه عليهم الظروف الوطنية والقومية، حتى لا يحدوا عن هدفهم ويخونوا الرسالة المنوطة بهم.

ومن هنا رأينا «العالم» فى نقده يجمع بين وضوح الرؤية الفكرية، وعمق الثقافة الفلسفية، وجمال التعبير الشعرى، فاستطاع أن يكسب لقلمه جمهوراً واسعاً، كما أن دراساته للثقافة المصرية وإبحاره بمهارة فى ميادين الآداب والعلوم والفلسفة والسياسة، قد أثارت مجموعة من المعارك والمناقشات الحامية بين عدد من الكتاب والمفكرين، فجاء «محمود أمين العالم» بحق «جدلاً مثيراً للجدل».

## الحوار:

أستاذى الفاضل، أرجو أن تعفينى بداية من اللجوء إلى أكليشيهات المديح المعتادة فى مثل هذه المواقف، فلن يضيف قولى إلى ما قيل قبلى شيئاً، بل إن كل ما قيل من قبل، وما سيقال من بعد، لن يوفيك بعض حقل علينا، إذن فأسمح لى أن أبدأ حوارى معك مباشرة.

أنتمى إلى جيل الخمسينيات الذى جاءت لحظة ميلاده العقلى مع بزوغ نجم «محمود أمين العالم» بصوته المدوى، ذلك الصوت القادم من بعيد كى ينسف المعبد، ويحرك السواكن، فيبدأ بداية عاصفة . . متدفقة . . متنوعة فى آن . .

فى عام ١٩٥٠ يكتب فى مجلة (علم النفس) مقالا بعنوان (ما وراء المدرك الحسى) يهاجم فيه الوضعية المنطقية ممثلة فى شخص «زكى نجيب محمود»، وفى عام ١٩٥٥ يصدر كتاب (ألوان من القصة المصرية) يحتوى بعض القصص من اختياره مع تعليقاته النقدية عليها بالإضافة إلى مقدمة بقلم «طه حسين» يقدم بها الكتاب والناقد للناس، وفى العام نفسه أصدر بالاشتراك مع «د. عبدالعظيم أنيس» كتاب (فى الثقافة المصرية) الذى أثار من الأصداء وردود الأفعال ما لا ينس، وفى عام ١٩٥٦ يصدر (قصص واقعية من العالم العربى) بالاشتراك مع «غائب طعمة فرمان»، هذا بالإضافة إلى انتهائه فى عام ١٩٥٣ من أطروحته لنيل درجة الماجستير فى فلسفة العلوم الطبيعية ببحته الذى لم يزل رائداً فى ميدانه إلى يومنا هذا عن (فلسفة المصادفة).

ومن هذا يتضح بجلاء الدفق الفكرى العظيم، المغلف بتعدد الاهتمامات، والموسوعية، تلك الموسوعية التى بهرتنا تماماً بتشعبها وعمقها وجديتها وثوريتها الجديدة مما جعلنا - كجيل - نحارفى توصيفه، هل نشبهه بعبد الرحمن بدوى الرجل المؤسسة، أو تشبه ببرتtrand رسل، مع بعض التجاوز هنا وهناك؟

لهذا يا أستاذنا فأنت - شئت أم أبيت - أحد المسؤولين البارزين عن التكوين الثقافى والفكرى لهذا الجيل، وعلى ذلك فمن حقنا عليك أن تتقدم إلينا ببعض التفسيرات لعلامات الاستفهام وبعض الإجابات عن التساؤلات.

بداية أود التنبيه إلى أن تساؤلاتي تركز على ركيزتين أساسيتين هما بمشابة النسيج العضوى الذى يتتظم حوارى معكم من بدايته لنهايته .

### الركيزة الأولى

أود أن أذكرك بفحوى المقولة الماركسية الشهيرة القائلة بالتأثير الحتمى لمولد المثقف على تكوينه وانتمائه الفكرى، فذهب إلى أن المثقفين الذين ينشأون فى جماعات مرتبطة بالقوى الملكية والأسر الارستقراطية يميلون إلى أن يكونوا يمينيين، بينما المثقفون الذين يولدون فى جماعات من الطبقة المتوسطة والفقيرة يتجهون إلى اليسار وكلما كانت الجماعة الاجتماعية التى ينحدر منها المثقف أكثر يسارية اتجه ليصبح بالتبعية - أكثر يسارية .

### الركيزة الثانية،

تتأسس على الركيزة السابقة، ومضمونها أننا - كجيل - نراك تمثل لنا نسيجاً متواتراً من التناقضات، أو التحولات كيف ذلك؟ هذا يؤدى بنا إلى حوارنا .

فى التحليل الأخير أنت صاحب رؤية اجتماعية تقدمية، كنت ولم تزل حتى لحظتنا الراهنة، مقتنعاً بالماركسية كأداة لفحص الواقع وتحليله، الماركسية إذن تمثل النقطة الأخيرة فى شريط حياتك الراهن، إلا أنها تتعارض تماماً مع نقطة بداية هذا الشريط، وبالرغم من أنك قد ضننت علينا حتى الآن بكتابة سيرتك الذاتية، ولا أدرى السبب الحقيقى لهذا الغبن حتى الآن، هل يأتى اتفاقاً مع منطق «إلجام العوام عن علم الكلام» أو لسبب آخر، إلا أن هذا لا يحول بيننا وبين أن نحذو حذو المنقب عن الجواهر المكونة بين الشتات المتناثر، كى نوضح هذا التعارض بين البداية والنهاية، فلنر معاً عناصر التكوين الخاصة بك .

أولاً : الوعى بالحياة والعالم الخارجى: أزقة الدرب الأحمر، وحى الأزهر، وتلال الدراسة، كانت تشكل الحدود الجغرافية لعالمك الأول، والذى كان عالماً ضيقاً عتيقاً .

ثانياً: الوعى العلمى والفكرى: فى المنزل كان أول تعامل لك مع الكتب، فقد نشأت فى منزل يمتلئ بكتب تحييط بك من كل جانب، كتب والدك، وكتب أشقاتك أيضاً فى هذا المنزل تكشف أمامك عالم الدين من خلال عاملين مهمين:

العامل الأول: هو انتساب والدك إلى الطريقة السنية، وتعيينه وكيلاً لإمامتها وشيخها الشيخ محمود خطاب السبكي، وحضورك الدروس الدينية للشيخ السبكي وإهتمامه بك اهتماماً شخصياً، ومتابعته لدراستك في المرحلة الابتدائية.

العامل الثانى: هو شقيقك أحمد، الذى كان ضريباً، ودارساً بالأزهر، ودائماً ما كان يستعين بك كى تقرأ له كتبه الدراسية، ومراجعته العلمية لكى ينقلها إلى طريقة «بريل» حتى يتمكن من استذكارها، وهنا كان تعاملك مع أعوص الكتب الدينية، وغوصك فى بطون التراث القديم والحديث حتى مطلع شبابك.

وقد ترسب فى نفسك الكثير من أثار بقايا هذه القراءات القديمة، التى لم تكن تفهم معظمها فى البداية، إلا أن فهمك لها كان ينمو ويتطور.

يضاف إلى هذا، أنك قد ظللت حتى مرحلة المراهقة أسيراً لم تبارح الحدود الجغرافية لعلمك الضيق العتيق العريق، إلا حينما كنت تصاحب شقيقك أحمد، الذى كان ينتسب إلى الجمعية الشرعية التى كانت - ولا تزال - تدعو إلى المذهب السنى، وكانت مسؤوليته فيها تنحصر فى القيام كل يوم جمعة بإلقاء خطبة الصلاة، ودرس بعد الصلاة فى مساجد الجمعية الشرعية المنتشرة فى أنحاء القاهرة. فأين هذه البداية من تلك النهاية؟

### على الصعيد الفكرى والفلسفى:

فى عامك السادس عشر بدأت تكتب مذكراتك الشخصية وجعلتها بعنوان (ببى وبين نفسى) ولم تزل تعود إليها بين الحين والآخر حتى الآن، على الرغم من كونها زاخرة بالحزن والتشاؤم وفقدان الطريق، فإنها تحتوى على برنامج تفصيلى لتحقيق المثل العليا فى العالم.

فى العام الأخير من دراستك الثانوية كنت معجباً بأستاذ اللغة الفرنسية، وكان هذا الأستاذ من المتحمسين للفيلسوف الألمانى «نيتشه» وبدأ استغراقك الكامل فى الدراسات الفلسفية، من ينبوع المثالية الألمانية.

بعد ذلك بدأت مرحلة الدراسة الجامعية، قد دخلت كلية الآداب طالباً بقسم الفلسفة، وفى الوقت نفسه كنت تعمل موظفاً فى إدارة التوريدات بوزارة التربية والتعليم، ثم أمينا

لمخزن في مدرسة الأورمان، ثم انتقلت أمينا لمخزن في كلية الآداب بجامعة القاهرة. وطوال فترة دراستك الجامعية كان يستغرك أمران: الدراسة الفلسفية، والشعر، وكانت تحرك تصورات مثالية وميتافيزيقية خالصة.

بعد التخرج في الجامعة، واسمح لى بالتوقف هنا برهة.. عند تخرجك من الجامعة، كنت ماتزال مستغرقاً في فلسفة نيتشه، وبرجسون، وكانط، وكنت تحلم بأن تقيم صرح بناء فلسفي ميتافيزيقي في مواجهة الفيزياء المعاصرة على غرار البناء الميتافيزيقي الذي أقامه كانط في مواجهة فلسفة نيوتن، وكنت تؤمن بالأهداف الاقتصادية والاجتماعية التي يستخلصها التحليل الماركسي للمجتمع، وللحياة عامة، ولكنك كنت ترفض بل وتسخر من الفلسفة الماركسية.

من هنا بدأت تعد بحثاً لنيل درجة الماجستير، تحاول فيه إثبات عدم موضوعية العلم، عن طريق تقويض الأساس الموضوعي للعلم، متأثراً في ذلك بأفكار إدنجتون وجينز وبوانكاريه وبيرسون وماخ وغيرهم.

وكما كتبت عن نفسك (جريدة «الأخبار» سنة ١٩٦٩ بمناسبة الإحتفال بذكرى لينين التاسعة والتسعين) كنت تحلم بمغامرة فكرية تقوض بها حقائق العلم الصلبة، وكان العالم المادى من حولك مجرد نسيج وهمي صنعته التصورات الإنسانية.

كنت ميتافيزيقياً متطرفاً، يتحرك بإرادة نيتشه، ويتعرف بحدس برجسون، ويعيش لا معقول مايرسون، ويسخر من موضوعية العلم بكلمات ادنجتون وجينز.

فأخذت من «المصادفة» موضوع بحثك الأكاديمي، الذي جعلت منه جوداك الجامح، تمتطيه لتقويض موضوعية العلم والعالم، وقطعت بجوداك أشواطاً طوالاً من تاريخ الفكر، وما أن بلغت نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أخذت تترنم بفلسفات بيرسون ودورهم وماخ، وتلوك تصوراتها المثالية، متأهبا لملاقاة المنجزات العلمية الجبارة في مفتح القرن العشرين بسيف ميتافيزيقي بتار، ما كان أشد غروره وتعاليه.

في غمرة هذا البحث، وبالمصادفة إلتقيت بكتاب (المادية والنقد التجريبي) لفلاديمير إيلتش لينين، والذي كان يعرض لتلك الفلسفات المثالية بالنقد والتحليل، ومن يومها تغير

اتجاهك الفكرى وتبدلت حياتك كلها .

كنت تعرف لينين قائداً لثورة اجتماعية جديدة فى التاريخ لها منجزاتها الاقتصادية والسياسية التى تقدرها جيداً، وكذلك كنت تتناقض مع مفاهيمها النظرية وقاعدتها الفلسفية، كانت شطحاتك الميتافيزيقية المتوهجة ترى فيها شحوباً فكرياً لا يستأهل التأمل أو التعمق، وحرصاً على استكمال رحلتك الأكاديمية وقفت فى تعال لاحد له لتجهز بسيفك الميتافيزيقى على هذا الكتاب، ثم تواصل رحلتك إلى هدفك الأكبر، تقويض العلم الموضوعى فى القرن العشرين .

وقفت عند كتاب لينين، ثم طالت وقفتك، ثم توقفت تماماً، بل توقفت عن مواصلة الرحلة كلها، ترجلت عن جوادك الجامح، وسقط منك سيفك الميتافيزيقى المغرور .

وبدلاً من انتهاء بحثك فى أعوام ثلاثة كما كنت تقدر له، واصلت السير لسبعة أعوام، تراجع فيها رحلتك وبحثك وفكرك وحياتك من جديد، لتخلص فى النهاية إلى ما يناقض بداية الرحلة، إيمان جديد بموضوعية العلم والعالم .

هكذا جاءت معرفتك بهذا المفكر، الذى كان العالم يومئذ يحتفل بمرور ٩٩ عاما على ميلاده، واحتفلت به أنت أيضا، ميلاداً جديداً لرحلة عمرك .

- على الرغم من اطلاع العديد من المثقفين غيرك على هذا الكتاب، إلا أنه قد تمكن منك بقوة شكلت تحولاً عظيماً فى فكرك وحياتك، فما السر فى قوة هذا التأثير؟ هل لو قرأت هذا الكتاب فى لحظة زمنية أخرى، قبل ذلك مثلاً، كان يصادف التأثير نفسه؟ هل جاءت قراءتك فى لحظة تاريخية اجتماعية معينة، أو مستوى الأمر؟ أما أنت قد انتهيت إلى هذه النهاية ذات الرؤى الاجتماعية التقدمية، فأسمح لى بهذه المداخلة .

### أولاً: التحليل الماركسى؛

ليس هناك شك فى وجود عدة مزايا يتمتع بها التحليل الماركسى للواقع، ومن المعارف عليه أن هذا التحليل يستند من حيث التطبيق إلى المناداة بكل من «المادية التاريخية» و«المادية الديالكتيكية» .

بفضل النظرة الديالكتيكية إلى التاريخ، أمكن تجاوز الفهم الألى المحدود للتاريخ، الذى تعبر عنه نظرية (أنف كليوباترا) خير تعبير، وإحلال فهم آخر «شامل» محله، ذلك لأن تطبيق مفهوم الديالكتيك على التاريخ يعنى إدراك الصفة «الكلية» لمجرى التاريخ البشرى، والنظر إلى أى حادث جزئى من خلال الكل الشامل الذى يكتسب الحادث معناه بوصفه جزءاً منه.

أى أن الفهم الديالكتيكي للتاريخ يعنى توسيع أفق النظرة إلى الحوادث الجزئية بحيث تندرج تحت كلييات أعم منها، ولايصح لمعاني الجزئية أو الخصوصية مجال فى أحداث التاريخ.

إذن فالمقولة الأساسية فى الديالكتيك التاريخى هى مقولة (الكلية) ولم يكن تأكيد ماركس على أهمية (علاقات الإنتاج) فى تفسير التاريخ إلا تطبيقاً لمقولة الكلية، فلولا أن الإنسان ذاته «كلاً» أى شخصية عضوية متماسكة، لما تمكن من فهم تاريخه باعتباره كلاً شاملاً، واعتماداً على صفة «الكلية» هذه تركز كلية الواقع الاقتصادى أو واقع الإنتاج فى نهاية الأمر.

ولأن التاريخ ظاهرة بشرية قبل كل شىء، بمعنى أن الإنسان ذاته أسهم فى أحداثها وتطويرها، فلقد كان منطقياً فى هذه الحالة أن تقوم بين الذهن البشرى والواقع التاريخى علاقة ديالكتيكية تعبر عن مدى تغلغل الفكر فى هذا الواقع وعمما يقوم بينهما من علاقات متبادلة.

أما تطبيق فكرة الديالكتيك فى مجال الطبيعة فأمر مختلف، ذلك لأن الرغبة فى تطبيق مبادئ واحدة على كافة مظاهر المعرفة، تدفع الماركسية إلى القول «بالمادية الديالكتيكية»، لا المادية التاريخية فحسب، أى تطبيق الديالكتيك على الطبيعة.

- إن المقولة الرئيسة فى الديالكتيك، كما ورد من قبل، هى مقولة «الكلية» فهل تتألف الطبيعة من «كليات» حتى يمكن القول بإمكانية تطبيق الجدل عليها؟

### ثانياً: بصدد موقفك من زكى نجيب محمود

فى محاولتك لتحديد مصادر التكوين الفكرى، والأصول الفكرية التى شكلت نظرتك النقدية، تقول بأن مدخلك إلى النقد الأدبى كان بعيداً عن النقد وبعيداً عن الأدب بعامه،

كان هذا المدخل هو اهتمامك بالمنطق وعلم المناهج عامة فى دراستك الفلسفية .

والمنطق فى رأيك هو دراسة لأشكال التعابير، وخاصة المنطق الشكلى، أى المنطق  
الصورى . ومن دراسة أشكال الفكر تفتحت أمامك أشواق عارمة لدراسة الأشكال المختلفة  
للتعبير غير الفكرى، التعبير الوجدانى، أو التعبير الفنى والأدبى بشكل عام، وقد ارتبطت  
هذه الأشواق بممارستك للإبداع الشعرى والأدبى . لهذا فى النقد بلقاء حميم بين  
اهتماماتك المنطقية، وبين طاقة الإبداع الأدبى لديك .

أن الأمر كان أكبر من هذا، فاهتمامك بأشكال التفكير المنطقى، بدأ يمتد إلى اهتمام  
شامل بأشكال التعبير فى التطبيق الإنسانى كله، فى قوانين التعبير الإنسانى عامة، لا الأدبية  
فحسب، بل العلمية والرياضية والاجتماعية .

فى هذه الأيام كنت تغلب الشكل تغليباً يكاد يكون مطلقاً على دراسة العمل الأدبى  
والفنى وتذوقه، وكان حلمك الكبير أن تكتشف القانون الرياضى للعمل الأدبى . وخلاصة  
الأمر، إن اتجاهك للنقد الأدبى كان لقاءً حميماً بين اهتمامك بالمنطق ومناهج العلوم من  
جهة، وممارستك للإبداع الأدبى من ناحية أخرى .

وفى سنة ١٩٥٠ نشر دراسة فى مجلة «علم النفس التكاملى» بعنوان «ما وراء المدرك  
الحسى» تهاجم فيها فلسفة الوضعية المنطقية بعامه، ود . زكى نجيب محمود بصفته المتحدث  
بلسانها العربى . وقد استمر هذا الهجوم طوال الخمسينيات والستينيات وما بعد ذلك .

فى سنة ١٩٨٦ ذهبت إلى دمياط لتشارك فى احتفال كلية التربية بالدكتور زكى نجيب  
محمود، وقدمت واحدة من أبرز الدراسات التى قدمت فى هذا الاحتفال تحدث فيها عن  
معانى العقل والعقلانية عند زكى نجيب محمود، وتذكر أنك كتبت فى سنة ١٩٥٠ مهاجماً  
للوضعية وله، وأنت طوال هذه السنوات الخمس والثلاثين كنت تتابع كتاباته متابعه نقدية  
دؤبة، ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، لم يختلف موقفك من الوضعية المنطقية سواء فى  
منهجها النظرى العام، أم فى تطبيقها المصرى العربى على يد د . زكى نجيب محمود .

تمهد لدراستك باستعراض سريع للمعالم الأساسية لفلسفة الوضعية المنطقية، وتقول  
عن مهمة الفلسفة عند الوضعية المنطقية ان مهمتها ليست أن تقيم بناءً معرفياً، أو نسقا

أنطولوجيا أو إبستمولوجيا أو أكسيولوجيا، وإنما تقتصر مهمتها على تحليل العبارات تحليلاً يكشف عن صحة ما تشير إليه من مدركات حسية مباشرة أو عدم صحتها، ووسيلة الفلسفة إلى التحليل هي المنطق، المنطق الصوري بوجه التحديد. فالمنطق سواء بسواء كالرياضة لا يعبر عن شيء في الخارج، وإنما هو صياغات شكلية تقوم على تحصيل الحاصل، ولهذا فهي مجرد أداة للتحليل. إنها فلسفة وضعية من حيث إقتصارها على المعطيات الحسية باعتبارها الأساس والمعيار الوحيد للصدق، وهي منطقية لاتخاذها المنطق الصوري أداة للتحليل وتحديد مدى المطابقة بين التعبير والمعطيات الحسية.

بعد ذلك، وعلى طول دراستك، ترفض فلسفة زكي نجيب محمود على أساس نقدك لمفهوم العقل عنده وتعريفه إياه تعريفاً صورياً إجرائياً. فتبدأ بمتابعة تعريفه للعقل في عدة مواضع من كتاباته مع ذكر نصوص هذه التعريفات، فهو يقول في أحد تعريفاته مثلاً بأن العقل هو (طريقة السير من نقطة الابتداء إلى نتيجة يوصل إليها) أي هو (النقطة من مقدمة مطروحة أمامنا إلى نتيجة تلزم منها، أو تستدل منها إما لزوماً يقينياً في حالة الرياضة أو استللاً ترجيحياً في حالة العلوم الطبيعية)، وخلاصة هذه التعريفات جميعاً - في رأيك - على تنوعها هي أن العقل والعقلانية هي عملية عملية استدلالية أم استقرائية، العقل إذن مجرد سلوك وغاياتها، سواء كانت هذه العملية عملية استدلالية أم استقرائية، العقل إذن مجرد سلوك عملي يبدأ من مقدمات مبدئية مفروضة وينتهي إلى أهداف مبتغاة دون علاقة له بتلك المقدمات أو تلك الأهداف، إنه خط السير فحسب وخارطته، ولهذا فهو إلى جانب طابعه الإجرائي الخالص له طابع نفعي كذلك، فهو وسيلة أو أداة عملية لتحقيق غاية، وسلامته وصحته في مدى دقته في الوصول إلى هذه الغاية. إنها إذن دقة برجماتية نفعية.

وفضلاً عن ذلك - في رأيك - فليس للعقل في تعريف د. زكي نجيب محمود أي دلالة إبستمولوجية معرفية، بل هو سواء بسواء كالقانون العلمي مجرد تعليمات إجرائية لتيسير الوصول إلى غاية ما، دون أي تعبير عن حقيقة موضوعية أو عن امتلاك معرفي لضرورة خارجية متحققة. أين ذهب شغفك بالمنطق ومناهج العلوم؟

بعد تمهيدك - سالف الذكر - لدراستك، تقول إنه قد أتيح لك متابعة مقالاته الأسبوعية في جريدة «الأهرام»، وأن دوره - أي زكي نجيب محمود - في هذه المقالات كان دوراً

إيجابياً على المستوى الفكرى والاجتماعى، مما يؤكد أنه كان ولا يزال بحق فارس العقل والعقلانية فى مواجهة الفكر السلفى اللاعقلانى المتزمت، وهو فى هذا ولهذا موضع تقدير وإكبار.

ولهذا كان طبيعياً أن يثور فى نفسك هذا السؤال القلق: أين هذا التقدير والإكبار لعقلانية زكى نجيب محمود فى مقالاته هذه، من موقفك النقدى له لأكثر من ثلاثين سنة؟ هل عقلانيته هذه منبئة الصلة بالوضعية المنطقية، أو هى لانزال امتداداً وتطبيقاً لها؟ وإن صح هذا فما سر إكبارك وتقديرك؟ هل تصدى زكى نجيب محمود بعقلانيته هذه للخطر الأكبر الذى يواجهه مجتمعنا ممثلاً فى الفكر السلفى اللاعقلانى المتزمت، يجعلك تقبل هذه الدلالة الوضعية للعقل ولا تتعرض لها بنقد، مراعاة لهذه المعركة مع اللامعقول؟

وبدأت بعد ذلك دراستك التفصيلية لتوضح مبرراتك لرفض التعريف الإجرائى النفعى البراجماتى للعقل عند زكى نجيب محمود، ورفضك للدلالة الوضعية لهذا العقل. وفى خاتمة دراستك تعاود سؤال نفسك قائلاً كيف أرحب وأقدر وأكبر مقالات زكى نجيب محمود على الرغم ما فيها من حدود وقصور عن مطاولة المفهوم العلمى للعقل والعقلانية الذى أراه؟ ثم تحاول الإجابة، فتبدأ بوعى - أو بدون وعى - فى مواصلة نقدك وتقديم مبررات سياسية هذه المرة لرفضك لمفهوم العقل والعقلانية عنده!؟ حاول الإجابة بوضوح وحسم: هل تكبره وتقدره؟ هل ترفض عقلانيته رفضاً عقلياً، أو أيديولوجياً؟

## خاتمة:

لقد كان (معارك فكرية) سنة ١٩٦٥ فاتحة الطريق أمامنا، فبدأنا، أنا وجيلى جيل الخمسينيات، محاولة التعلم بدخول «العالم» الفكرى عن طريق «العالم» المفكر، ومن هنا حاول التلميذ أن يمارس مع أستاذه ما تعلمه، فإن كنت أحسنت فقد تعلمت، وإن لم أكن أحسنت، فهو نقص فى الاستيعاب.. وإننى بالأصالة عن نفسى، وبالنيابة عن أبناء جيلى أقدم تحية التلاميذ إلى «عالم» أفصد ناظر المدرسة.